

عناصر المحاضرة : [مفاهيم أولية (مفهوم الأدب - تاريخ الأدب العربي - مفهوم الجاهلية)،

الشعر العربي القديم تاريخيا (أصل العرب وسبب تسميتهم بهذا الاسم - طبقات العرب - قضية أوليات الشعر العربي في الجاهلية)، الشعر العربي القديم جغرافيا (حدود شبه الجزيرة

[العربية - أقسامها - صفاتها)

مفاهيم أولية :

أ/ مفهوم الأدب :

لقد تطور مفهوم الأدب عبر العصور، وانتقلت دلالاته من معناها الحسي إلى المعنى المجرد، وذلك يرجع لتطور العقل العربي من طور البداوة إلى أطوار المدنية والحضارة، قبل أن يستقر مفهومه الاصطلاحي، فقد كان في الجاهلية يراد به :
المأدبة أي الوليمة، والداعي إليها الآدب، ومنه قول طرفة بن العبد¹ :

لَا تَرَى الْآدِبَ فِينَا يَنْتَقِرُ ²	نُحْنُ فِي الْمَشْتَاةِ نَدْعُو الْجَفَلَى
---	--

ثم أصبحت في الإسلام يراد بها معنى التهذيب والتثقيف، ففي الحديث المنسوب إلى النبي صلى الله عليه وسلم قوله : ((أدبني ربي فأحسن تأديبي))³ ، وفي هذا المعنى يشير الجواليقي بقوله : « الأَدَبُ الَّذِي كَانَتْ الْعَرَبُ تَعْرِفُهُ هُوَ مَا يَحْسُنُ مِنَ الْأَخْلَاقِ وَفَعَلَ الْمَكَارِمَ مِثْلَ تَرْكِ السَّفْهِ وَبَدَلَ الْمَجْهُودِ وَحَسَنَ اللَّقَاءِ »⁴

¹ - الديوان، شرحه : مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط03، 2002، ص43.

² - المشتاة : الشتاء، الجفلى : الذين يدعون كل الناس إلى الطعام دون تسمية، الآدب : الداعي إلى الطعام، لا ينتقر : لا يختار أناساً دون آخرين أو لا يتذمر.

³ - رواه العسكري في الأمثال، ضعفه السيوطي والسخاوي وابن تيمية وغيرهم، انظر : محمد ناصر الدين الألباني، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة، ج01، دار المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط01، 1992، ص173. وإن كان معناه صحيحاً كما هو ظاهر، ودليله قوله تعالى : ((وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)) [القلم : 4].

⁴ - عبد القادر بن عمر البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، ج09، تح : عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط04، 1997، ص432.

ثم أصبحت في العصر الأموي تدلُّ على معنى زائد؛ وهو معنى التعليم، حيث ارتبط بطائفة المؤدبين أي المعلمين، الذين « كانوا يعلمون أولاد الخلفاء ما تطمح إليه نفوس آبائهم فيهم من معرفة الثقافة العربية؛ فكانوا يلقتونهم الشعر والخطب وأخبار العرب وأنسابهم وأيامهم في الجاهلية والإسلام »¹،

أما العصر العباسي فأصبحت تدل على المعنيين السابقين (التهذيب والتعليم)، وأضيف لهما دلالة على ضروب من الحكم والنصائح والتوجيهات الخلقية والسياسية، كما هو ظاهر في مضمون كتابي ابن المقفع ((الأدب الصغير والأدب الكبير)) وغيرها من الكتب التي عقدت فصولاً في هذا المعنى، ثم توالى بعد ذلك الكتب في هذا العصر (خاصة القرنين الثاني والثالث الهجريين)، لتدلُّ على معنى معرفة كلام العرب وأشعارهم وأخبارهم ونواديرهم وغيرها ككتاب البيان والتبيين للجاحظ (ت 255هـ)، وكتاب الكامل في اللغة والأدب للمبرِّد (ت 285هـ)، وكتاب عيون الأخبار لابن قتيبة (ت 276هـ)، وغيرها من الكتب بعد هذه الفترة، والتي أصحابها فيها « ألوانا من الأخبار والأشعار والخطب والنوادر، مع ملاحظات نقدية وبلاغية كثيرة »²، ثم اتسعت دلالاته لتتجاوز المعاني السابقة، وبخاصة ما يتصل بمعرفة كلام العرب شعره ونثره وأخبارهم ونواديرهم، لتشمل المعارف الأخرى المترتبة بالأمة العربية وغير العربية، كما جاء على لسان الحسن بن سهل (236هـ) قوله: « الآداب عشرة؛ فثلاثة شهرجانية³، وثلاثة أنوشروانية⁴، وثلاثة عربيّة، وواحدة أربت عليهن؛ فأما الشهرجانية فضرب العود، ولعب الشطرنج، ولعب الصّوالج، وأما الأنوشروانية فالطبّ، والهندسة، والفروسية، وأما العربية فالشعر، والنّسب، وأيام الناس.، وأما الواحدة التي أربت عليهنّ: فمقطعات الحديث، والسمر، وما يتلقّاه الناس بينهم في المجالس »⁵

وفي القرن الرابع الهجري أصبحت تدل على الشعراء والكتاب المشغولين بصناعة الأدب والنثر، وأصبحت تدلُّ على ذلك « الكلام الجميل المؤلّف بطريقة فنية تؤثّر في النفس، وتستثير فيه حب الخير والفضيلة والجمال، وتبغض إليه الشر والرديلة والقبح »⁶

وقد جاء تعريف الأدب عند محمد عبد المنعم خفاجي وافيًا وجامعًا للمعاني السابقة، في قوله « الأدب هو كل كلام عبر عن معنى من معاني الحياة، وجلا صورة من صورته بأسلوب جميل، ولفظ بديع، فتثير معانيه العاطفة، وتستثير بلاغته الإعجاب »⁷

¹ - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي)، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط 24، 2003، ص 08.

² - المرجع نفسه، ص 09.

³ - الشهرجانية: نسبة إلى الشهارجة أو الشهاريح وهم أشراف الفرس.

⁴ - الأنوشروانية: نسبة إلى كسرى أنوشروان ملك الفرس من سنة 531-579م.

⁵ - أبو إسحاق الحصري القيرواني، زهر الآداب وثمر الألباب، ج 01، دار الجيل، بيروت، لبنان، ص 196.

⁶ - غازي طليمات وعرفان الأشقر، الأدب الجاهلي (قضاياها، أغراضه، أعلامه، فنونه)، دار الرشاد، حمص، سوريا، ط 01، 1992، ص 16.

⁷ - الحياة الأدبية في العصر الجاهلي، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط 01، 1992، ص 01.

ب/ تاريخ الأدب العربي :

لاشك أن التاريخ الأدبي في أي أمة من الأمم مرتبط بالواقع السياسي والاجتماعي، ولهذا نجد أن الأمة العربية قد سارت على هذا المنوال طيلة تاريخها، وترجع فائدة تقسيم الآداب إلى عصور مختلفة تسهيلاً لدراستها ضمن المعطيات السياسية والاجتماعية والثقافية لكل عصر، « والمراد بعصور تاريخ الأدب هذه المسافات الزمنية التي تجمع إلى الآداب ما له بها ارتباط قوي من النظم الاجتماعية، والحالات السياسية والدينية، التي لها شأن في تصوير الأدب بصورة العصر الذي ينشأ فيه »¹ وقد اختلفت - نسبياً - آراء الدارسين في تحديد الحدود الفاصلة بين عصر أدبي وآخر « فمنهم من نظر إليه من ناحية أصالة لغته فقسمه إلى أدب قديم، وأدب مخضرم، وأدب مولد، وأدب محدث، منهم من نظر إليه من ناحية علاقته بالبيئة السياسية والاجتماعية فقسمه إلى أدب جاهلي، وأدب إسلامي، وأدب عباسي، أدب انحطاط وأدب نهضة »² لكن أكثر من أرحوا للأدب العربي وزعوا حديثهم في هذا التاريخ على خمسة عصور أساسية، هي :

1/ **العصر الجاهلي** : ويبتدئ قبل 150 إلى 200 سنة قبل البعثة النبوية، وينتهي بظهور الإسلام سنة 622م، وهذه تسمى الجاهلية الثانية، أما الجاهلية الأولى؛ فيشمل كل ما قبل بداية الجاهلية الثانية؛ أي ما قبل القرن الخامس للميلاد، وحقبة الجاهلية الثانية هي التي تكاملت فيها اللغة العربية، والتي جاءنا عنها الشعر الجاهلي، يقول الجاحظ مقررًا هذه الفكرة : « أما الشعر العربي فحديث الميلاد صغير السن، أول من نصح سبيله وسهل الطريق إليه امرؤ القيس بن حجر ومهلhel بن ربيعة.. فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له - إلى أن جاء الله بالإسلام - خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فماتني عام »³.

2/ **العصر الإسلامي** : ويبتدئ بظهور الإسلام، وينتهي بقيام إلى الدولة العباسية سنة 132هـ / 750م، وهو العصر الذي تكونت فيه الدولة العربية وتمت الفتوح الإسلامية، ومنهم من جعل هذا العصر بدوره ينقسم إلى قسمين :
* **عصر صدر الإسلام** : ويشمل عصر النبوة وعصر الخلافة الراشدة؛ التي ينتهي باستشهاد علي رضي الله عنه، سنة 41هـ، وقيام الدولة الأموية.

* **العصر الأموي** : والذي يبدأ بتولي معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه مقاليد الحكم 41هـ، وينتهي بسقوط دولة بني أمية على يد بني العباس سنة 132هـ .

3/ **العصر العباسي** : ومبدؤه قيام دولتهم سنة 132هـ، ومنتهاها سقوط بغداد عاصمة الخلافة على أيدي التتار سنة : 656 هـ، وبعضهم يقسم هذا العصر إلى أربعة عصور :

¹ - محمد هاشم عطية، الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، مصر، ط3، 1936، ص20، 21.

² - حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب القديم)، دار الجليل، بيروت، لبنان، ط01، 1986، ص38.

³ - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، ج01، تح : عبد السلام محمد هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط02، 1965، ص74.

*العصر العباسي الأول : ويبدأ من 132هـ، وينتهي بسنة 232هـ (انتهاء خلافة الواثق).

* العصر العباسي الثاني : ويبدأ من 232هـ، وينتهي بسنة 334هـ (استيلاء بني بويه على مقاليد الحكم الفعلية للخلافة).

*العصر العباسي الثالث : ويبدأ من 334هـ، وينتهي 447هـ (عام استيلاء السلاجقة على بغداد).

* العصر العباسي الرابع : ويبدأ من 447هـ، وينتهي 656هـ

4/ العصر التركي : ويسميه البعض عصر الانحطاط أو عصر الدول المتتابعة أو عصر الدول المتزامنة، ويتبدئ

بسقوط بغداد وينتهي عند النهضة الحديثة أو بداية حكم محمد علي باشا لمصر سنة 1220هـ / 1805 م، ويقسمه البعض إلى قسمين : عصر المماليك وعصر العثمانيين.

5/ العصر الحديث : ويتبدئ بحكم محمد علي باشا لمصر ولا يزال.

ملاحظة : لا بد من الإقرار أن هذه التحديدات السابقة نسبية، يراد منها تقريب أهم الملامح السياسية والاجتماعية والفنية والخلقية لكل عصر وإلا فإن التداخل حاصل بين الأعصر المصطلح على تسميتها بالعصور الأدبية، بحيث إنّ « الحياة الأدبية في أول عصر من العصور، لا تكاد تختلف عنها في نهاية العصر الذي قبله في كثير؛ ذلك أن حياة الأمة وحالتها الاجتماعية والخلقية والعقلية والفكرية لا تتغير إلا ببطء وبعد مدة كبيرة تعمل فيها عوامل التغيير السياسي الجديد عملها (...) فإذا ما مضى الزمن وسارت الأيام ظهر أثر هذا التغيير السياسي الجديد في حياة الأمة وتفكيرها وتراثها الأدبي بجميع فنونه وألوانه »¹

ج/ مفهوم الجاهلية :

لفظ الجاهلية وإن كان في الأصل صفة، فقد غلب عليه الاستعمال حتى صار اسماً، والجاهلية، من حيث الاشتقاق اللغوي: مصدر صناعي، مأخوذ من "الجاهلي" نسبة إلى "الجاهل" المشتق من "الجهل"، والجهل، في اللغة : نقيض العلم أو عدم العلم أو عدم اتباع العلم وعلى هذا الأساس فالناس قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم كانوا في حال جاهلية.

وينبغي أن نعرف أن كلمة الجاهلية التي أطلقت على هذا العصر ليست مشتقة من الجهل الذي هو ضد العلم، ونقيضه؛ لأن العرب « كانوا على قسط وافر من العلوم والمعارف، التي كانت معروفة في عصرهم كالفلك والطب واقتفاء الأثر »²، إنما هي مشتقة من الجهل الذي هو ضد الحلم، أي؛ السفه والغضب والنزق والإسراف في القتل واستباحة الفواحش، واستمراء العداوة وقطيعة الأرحام وغيرها مما نهي عنه الإسلام؛ يقول محمد هاشم عطية : « ليس الغرض من الجاهلية النسبة إلى الجهل المناقضة للعلم والمعرفة »³ بل هي تقابل كلمة الإسلام التي تدل على

¹ - محمد عبد المنعم خفاجي، الحياة الأدبية في العصر الجاهلي، مرجع سبق ذكره، ص 22.

² - تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، ج01، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط04، 1981، ص73.

³ - محمد هاشم عطية، الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي، مرجع سبق ذكره، ص 06.

الخضوع والطاعة لله جلّ وعز وما يطوى فيها من سلوك خلقي كريم، وقد حدد ابن منظور معناها فقال: « هي الحال التي كانت عليها العرب قبل الإسلام من الجهل بالله سبحانه ورسوله وشرائع الدين والمفاخرة بالأنساب والكبر والتجبر وغير ذلك »¹ وقد دارت الكلمة في الذكر الحكيم والحديث النبوي والشعر الجاهلي بهذا المعنى من الحمية والطيش والغضب؛ ففي سورة البقرة: ((قالوا أتتخذنا هزواً قال أعود بالله أن أكون من الجاهلين)) الآية : 67، وفي سورة الأعراف: ((خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين)) الآية : 199، وفي سورة الفرقان: ((وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً)) الآية : 63، وفي الحديث النبوي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لأبي ذر وقد عير رجلاً بأمه: ((إنك امرؤ فيك جاهلية))². وفي معلقة عمرو بن كلثوم التغلبي³:

أَلَا لَا يَجْهَلَنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا	فَنَجْهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ
--	--

وواضح في هذه النصوص جميعاً أن الكلمة استخدمت من قديم للدلالة على السفه والطيش والحمق. وقد أخذت تطلق على العصر القريب من الإسلام، أو بعبارة أدق على العصر السابق له مباشرة وكل ما كان فيه من وثنية وأخلاق قوامها الحمية والأخذ بالتأثر واقتراف ما حرم الدين الحنيف من موبقات.

1/ الشعر العربي القديم تاريخياً :

لاشك أنه لا يمكن إقامة تصورات واضحة حول الشعر العربي القديم، إلا بالتطرق إلى قضايا تاريخية ذات صلة بالتطور الزمني لهذا الشعر، بل وقبل ذلك لابد من التعرف على أصل أصحابه، ونعني بهم العرب :

أ/ أصل العرب وسبب تسميتهم بهذا الاسم:

*أصل العرب :

العرب إحدى الشعوب السامية، نسبة إلى سام بن نوح، مثلها مثل العبرانيين الذين يسكنون فلسطين، والحبشيين في الحبشة (أثيوبيا والصومال)، والآراميين في الشام، والآشوريين والبابليين الذين يسكنون العراق، والفينيقيين على سواحل سوريا مما يلي لبنان، وقد اختلف المؤرخون في أصل موطنهم الأول « فزعم بعضهم أنها شطوط الفرات، وآخرون أنها بادية العرب، وقال غيرهم إنها أرمنية، ومنهم من رأى أنها الحبش »⁴، بيد أنهم لما تكاثروا وضاعت بهم الأرض تفرقوا، ففرعت لغتهم الأم إلى عدة لهجات تختلف باختلاف الديار والأقطار، التي حلوا بها.

¹ - ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد، لسان العرب، ج11، دار صادر، بيروت، لبنان، ط3، 1414هـ، ص 130. مادة [جَهَل].

² - محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، ج01، تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، القاهرة، مصر، ط01، 1422 هـ، ص 15، الحديث رقم [30].

³ - الديوان، تح: إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط02، 1996، ص78

⁴ - بطرس البستاني، أدياء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، دار الجيل، بيروت، لبنان، ص08.

*سبب تسميتهم بالعرب :

لعلماء اللغة كلام مسهب في وجه تسمية العرب بهذا الاسم ، فقبل سماعوا كذلك لإعراب لسانهم، أي: إيضاحه وبيانه؛ من ذلك قولهم : أعرب الرجل عما في ضميره إذا أبان عنه، ولأنه أوضح الألسنة وأعرّبها عن المراد بوجوه من الاختصار، قال الأزهري: رجل عربي، إذا كان نسبه في العرب ثابتاً وإن لم يكن فصيحاً، وجمعه العرب. ورجل أعراي، إذا كان بدويًا صاحب نجعة وانتواء وارتياح الكلاء وتنع مساقط الغيث، وسواء كان من العرب أو من مواليهم، قال: والأعراي إذا قيل له يا عربي فرح بذلك وهش، والعربي إذا قيل له يا أعراي غضب؛ فمن نزل البادية أو جاوز البادين فظعن بظعنهم وانتوى بانتوائهم فهم أعراب، ومن نزل بلاد الريف، واستوطن المدن والقرى العربية وغيرها مما ينتمي إلى العرب فهم عرب وإن لم يكونوا فصحاء.

وقد صار لفظ الأعراي بعد الإسلام مما يراد به، الجفاء وغلظ الطبع، وكانوا يسمون ذلك في الرجل أعرايية، فيقولون للجاحي منهم: ألم تترك أعرايتك بعد؟ وبذلك خرجت الكلمة عن مطلق معنى البادية إلى معنى خاص يلازمها.

ب/ طبقات العرب:

لقد اعتاد المؤرخون على أن يقسموا العرب ثلاثة أقسام : بائدة، وعارية، ومستعربة¹ :

*العرب البائدة:

ويُراد بما القبائل التي بادت واندثرت أخبارها فلم يقع إلى التاريخ شيء منها، بحكم الحروب كطسم وجديس: ومسكنهم اليمامة، أو التي أهلكتها الله بغضب منه كعاد، ومسكنهم الأحقاف، وثمود في الحجر، وأميم في بادية أبار بين عمان والأحقاف، وعبيل: في يثرب، والعمالق: وهم قبائل عدة مساكنهم عمان، والحجاز وتهامة ونجد وتيماء، وجاسم: وهي قبيلة تفرعت من العماليق، « ولا نعلم عن هذه القبائل إلا أخباراً موجزة ذكرها القرآن، وأساطير مستملحة وشأها الرواة »²

*العاربة أو القحطانية:

وهم سكان اليمن، ينسبونهم إلى يعرب من قحطان، الذي يقال : إنه أول من نطق بالعربية، وسموا عاربة، على سبيل المبالغة - كما يقال: ليل لائل، وصوم صائم، وشعر شاعر: يؤخذ من لفظه فيؤكد به- وذلك لرسوخهم في العربية كما يقولون، يقال : إنهم نزحوا من أراضي الفرات، والمشهور منهم دولتان؛ سبأ وجميّر، فأما سبأ « فقد ظهرت دولتهم قبل الميلاد بنحو ثمانية قرون، وقد بلغوا من الحضارة على قدر أيامهم مبلغاً عظيماً، فغرسوا البساتين، وأقاموا السدود، وحفروا الترع، وشادوا الهياكل والقصور »³، ثم نالهم ما نال غيرهم من الأمم التي كفرت بأنعم الله، فأهلكهم الله بسبيل العرم - كما حكى الله قصتهم في القرآن - ثم جاء من بعدهم الحميريون؛ الذي يمتاز تاريخهم بالغموض

¹ - وهناك من الدارسين من يجعل العرب قسمين: عارب بائدة وعرب باقية، والباقية تنقسم بدورها إلى قسمين : العاربة (القحطانيون) وعارية مستعربة (العدنانيون).

² - بطرس البستاني، أدباء العرب في الجاهلية و صدر الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص 09.

³ - محمد هاشم عطية، الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي، مرجع سبق ذكره، ص 24.

والتفكك، ومن أشهر بطون حمير : قضاة وكهلان؛ اللذين تفرعتا إلى بطون كثيرة، نرح أكثرها نحو الشمال (نجد والحجاز) كالأوس والخزرج وزبيد وطيء وكندة وغيرهم.

*المستعربة أو العدنانيون:

وكانت منازلهم في شمال شبه الجزيرة العربية في تهامة ونجد والحجاز إلى مشارف الشام والعراق، ويسمون الإسماعيليين نسبة إلى جدتهم إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وكانوا بدوا أهل رحلة وضغن، أما سبب نسبتهم إلى عدنان، فلأن هذا الأخير من أحفاد إسماعيل، ومن ولد عدنان معدّ، ومن معدّ نزار، الذي تفرعت من ولده القبائل العربية المعروفة : أثمار وأياد وربيعة ومضر، فأما ربيعة فأشهر بطونها بكر وتغلب، فأما مضر فولد له إلياس ومن إلياس : قيس عيلان وطابخة ومدركة ، فمن قيس عيلان : هوازن وسليم وخطفان، ومن خطفان : عبس وذبيان، ومن طابخة : ضبة وتميم، ومن مدركة : هذيل وخزيمة، ومن خزيمة أسد وكنانة، ومن كنانة : فهر، وفهر هو قريش، التي تنسب إليه قبيلة النبي صلى الله عليه وسلم .

ج/ قضية أوليات الشعر العربي في الجاهلية :

لا ريب في أن المراحل التي قطعها الشعر العربي حتى استوى في صورته الجاهلية غامضة؛ فليس بين أيدينا أشعار تصور أطواره الأولى؛ وحيثيات انتقاله من شكل إلى آخر، إلى أن اتضحت سماته وقسماته، إنما بين أيدينا هذه الصورة التامة لقصائده بتقاليدها الفنية المعقدة في الوزن والقافية وفي المعاني والموضوعات وفي الأساليب والصياغات المحكمة، وهي تقاليد تلقي ستاراً صفيقاً بيننا وبين طفولة هذا الشعر ونشأته الأولى؛ فلا نكاد نعرف من ذلك شيئاً، إلا إشارات تذكر بعض من الشعراء القدماء المجهولين، الذين كانوا قبل أصحاب المعلقات، من ذلك ما قاله امرؤ القيس عن ابن خدام، الذي كان قبل امرئ القيس، ولا يعرف عنه ولا عن شعره إلا هذا البيت :

عُوجَا عَلَى الطَّلَلِ الْمُحِيلِ لَعَنَّا	نَبِكِي الدَّيَّارَ كَمَا بَكَى ابْنُ خَدَامٍ
--	---

ويرى زهير بن أبي سلمى أنه والشعراء معه ما هم إلا معيدين كلام غيرهم، فيقول:

مَا أَرَانَا نَقُولُ إِلَّا مُعَارَاً	أَوْ مُعَادَاً مِنْ لَفْظِنَا مَكْرُورَاً
---------------------------------------	---

ويؤكد عنتر ذلك بقوله أن الشعراء ما تركوا شيئاً إلا تناولوه، بقوله :

هَلْ غَادَرَ الشُّعْرَاءُ مِنْ مُتَرَدِّمٍ	أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُمٍ
--	---

إلا أن بعض الاجتهادات رأت أنّ الشعر العربي كانت نواته الأولى النثر ممثلاً في السجع ، ثم تطور ذلك فأصبح رجزاً¹، فقد كان العرب « يرتجزون على البديهة، فإذا ساروا بالإبل ارتجزوا، وإذا امتحوا الماء ارتجزوا، وإذا احتربوا وتفاحروا

¹ - الرجز : وسمي بذلك تشبيهاً بالناقة الرجزاء، وهي التي ترتعد فخذها وترتعش، لأنه مضطرب، كثرت فيه العلل والزحافات، ودخله الشطر والجزء والنهك، فهو أكثر البحور تغيراً، وهذا حمل بعضهم على أن يتصور فيه بذور البحور الأخرى، واعتباره أصل الشعر، وقد اعتبره العروضيون حمار الشعراء لسهولة النظم به، وقال عنه أبو العلاء المعري: ((سفساف القريض))، ووزنه هو :

مستفعلن مستفعلن مستفعلن *** مستفعلن مستفعلن مستفعلن

ارتجزوا، فكأن الرجز نمط من القول تقذفه البديهة إلى اللسان بلا عنق وحصر»¹ وهذا الكلام يعني أنّ النثر أسبق في الوجود من الشعر، إذ إن الثاني خرج من رحم الأول، لكن السؤال الذي يطرح، إذا كان الرجز هو التطور الطبيعي للنثر المرسل (السجع)، فما هي المرحلة اللاحقة للرجز؟

والإجابة عن هذا السؤال يرجع للتطور الطبيعي للشعر في كل أمة، وهو الانتقال به من الإطار النمطي إلى آخر تجديدي، حيث إنهم لما تمكنوا من الرجز « وألفت أسماعهم إيقاعه ركبوا من لغته تراكيب جديدة، وقلبوها على تراكيب مبتكرة، فأنكشفت لهم أوزان، انطلقت بها الألسنة، وطربت لها القلوب»² وساعدهم على ذلك الغناء والحداء³، في حلهم وترحالهم، فترجموه بيتا أو بيتين يعبر عن حالة نفسية عابرة، أو انفعال سريع، أو فكرة عارضة، وفي هذا يقول ابن سلام الجمحي: « ولم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل في حاجته»⁴، ثم في مرحلة لاحقة انتقل الشعر من المقطعات إلى المطولات، ويرى ابن سلام أنّ « أول من قصد القصائد»⁵ وذكر الوقائع المهلهل بن ربيعة التغلبي في قتل أخيه كليب وأئل»⁶، واتضح في شعر المعلقات؛ خاصة عند امرئ القيس، الذي هو أول من بكى واستبكى ووقف واستوقف، ووصف النساء بالبيض والمها والظباء، وشبه الخيل بالعقبان والعصي، وقرب مآخذ الكلام، وقيد أوابده، وأجاد الاستعارة والتشبيه والكناية، واستمرت إلى عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف - كما يرى ابن سلام -

وتترأى لنا مطولات الشعر الجاهلي في نظام معين من المعاني والموضوعات؛ إذ نرى أصحابها يفتتحونها غالباً بوصف

1 - غازي طليمات وعرفان الأشقر، الأدب الجاهلي (قضاياها، أغراضه، أعلامه، فنونه)، مرجع سبق ذكره، ص21.

2 - المرجع نفسه، ص 21، 22.

3 - يرى ابن رشيق أن التغني بالأجناد والمكارم هو السبب في اكتشاف العرب للشعر واختراعهم لهم، فيقول: « كان الكلام كله منثوراً فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها، وطيب أعرافها، وذكر أيامها الصالحة، وأوطانها النازحة، وفرسانها الأجماد، وسمحاتها الأجداد؛ لتتهز أنفسها إلى الكرم، وتدل أبناءها على حسن الشيم فتوهمو أعاريض جعلوها موازين الكلام، فلما تم لهم وزنه سموه شعراً؛ لأنهم شعروا به، أي: فطنوا» أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ج01، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجليل، بيروت، لبنان، ط05، 1981، ص 20.

4 - محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ج01، شرحه: محمد محمود شاكر، دار المدني، جدة، المملكة العربية السعودية، 1974، ص 26.

5 - ماك من الباحثين من يرى أنّ أول من أطلال القصائد وهذبها الأفوه الأودي، وبعضهم يرى أنه لقيط بن يعمر الأيادي أو عمرو بن قميئة، وقد أجمل السيوطي هذا الخلاف في مزهره نقلا عن عمر بن شبة بقوله: « للشعر والشعراء أول لا يُوقَفُ عليه وقد اختلف في ذلك العلماء وادّعت القبائل كل قبيلة لشاعرها أنه الأول ولم يدّعوا ذلك لقائل البيتين والثلاثة لأنهم لا يُسمون ذلك شعراً فادّعت اليمانية لامرئ القيس وبنو أسد لعبيد بن الأبرص وتغلب لمهلهل وبكر لعمر بن قميئة والمرقش الأكبر وإياد لأبي دؤاد قال: وزعم بعضهم أن الأفوه الأودي أقدم من هؤلاء وأنه أول من قصّد القصيد قال: وهؤلاء النفر المدّعى لهم التقدم في الشعر متقاربون لعل أقدمهم لا يسبق المحجرة بمائة سنة أو نحوها» جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ج02، مكتبة دار التراث، القاهرة، مصر، ط03، ص477.

6 - محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ج01، مصدر سبق ذكره، ص39.

الأطلال وبكاء آثار الديار، ثم يصفون رحلاتهم في الصحراء وما يركبونه من إبل وحيل، وكثيراً ما يشبهون الناقة في سرعتها ببعض الحيوانات الوحشية، ويمضون في تصويرها، ثم يخرجون إلى الغرض من قصيدتهم مديحاً أو هجاءً وفخرًا أو عتاباً واعتذاراً أو رثاءً، حيث اختلفت مع المقطعات في أنها أتاحت « بأنفاسها المديدة وأوزانها العديدة أفاقاً رحبة، يخلق فيها الشاعر، ليعبر عن أفكار دقيقة، وعواطف عميقة، لم تكن الأراجيز الراتبة النغم، والمقطعات القليلة الأبيات قادرة على استيعابها »¹

2/ الشعر العربي القديم جغرافياً :

مما لا شك فيها أن الأدب العربي شديد الصلة بالبيئة الجغرافية التي نشأ وترعرع فيها، « وقد كان شبه الجزيرة العربية موطنه الأول؛ فيه انطلق انطلاقته الأولى، وفيه نما وازدهر »²

أ / حدود شبه الجزيرة العربية :

تقع بلاد العرب في الجاهلية في أقصى الجنوب الغربي من قارة آسيا، وتعرف بشبه الجزيرة العربية، ويحدها من الشمال بلاد الشام والعراق، ومن الشرق الخليج العربي، ومن الجنوب المحيط الهندي، ومن الغرب البحر الأحمر، على نحو ثلاثة ملايين كيلو متر مربع.

ب/ أقسامها :

كانوا قديماً يقسمون هذه البلاد أقساماً بحسب الارتفاع والانخفاض، وأهم الظواهر الطبيعية البارزة في شبه الجزيرة العربية هي سلسلة جبال السراة، وهي أعظم جبال العرب وأشهرها، وتخترق شبه الجزيرة من الجنوب إلى الشمال، على محاذة الساحل الغربي، فتمتد من أقصى اليمن حتى تبلغ أطراف بوادي الشام، وتقسم شبه الجزيرة العربية إلى خمسة أقسام :

1/ اليمن : وسمي بهذا الاسم لوقوعه عن يمين الكعبة إذا استقبلت المشرق، وأحياناً يسمى اليمن الخضراء لكثرة

أشجارها وزروعها، وهي في جنوب شبه الجزيرة العربية، وكان يشمل حضرموت ومهرة والشحر وهمدان ومدحج ومراد ونجران، هذه الأخيرة اعتنق أهلها النصرانية، فأراد ذو نواس إرغامهم على اليهودية فأبوا فخذلهم الأحاديث وحرقتهم بالنار (كما ذكرهم الله في سورة البروج).

2/ الحجاز : وسمي بهذا الاسم لأنه يفصل بين تهامة ونجد، ويتخلل أرض الحجاز كئبان رميلة وآكام خصبة، وهي

مساكن القبائل، وحوها قرى وضباع، وبمنحدراتها توجد عيون مياه تنبت حولها بعض الجيوب ومراعي الماشية، ومن مدنها : مكة ويثرب أو المدينة ، والطائف

3/ تهامة : وهي الجزء الواقع غرب جبال السراة، التي تقسم شبه الجزيرة من الجنوب (اليمن)، ومن الشمال (الشام

(قسمين، وسميت تهامة من التهم شدة الحرّ وركود الرياح، وتسمى أيضاً الغور، وتهامة قسمان : تهامة اليمن وتهامة

¹ - غازي طليمات وعرفان الأشقر، الأدب الجاهلي (قضاياه، أغراضه، أعلامه، فنونه)، مرجع سبق ذكره، ص22.

² - حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب القديم)، مرجع سبق ذكره، ص63.

الحجاز.

/ **نجد** : وهي الواقعة شرقي جبل السراة، من أدنى حدود اليمن جنوباً إلى السماوة شمالاً، وسميت نجد لارتفاع أرضها، وهي أطيب أرض في بلاد العرب، أكثر الشعراء من ذكرها والتغني بها، وفيها أرض عالية، التي كان يحميها كليب وأهل وفيها قتل.

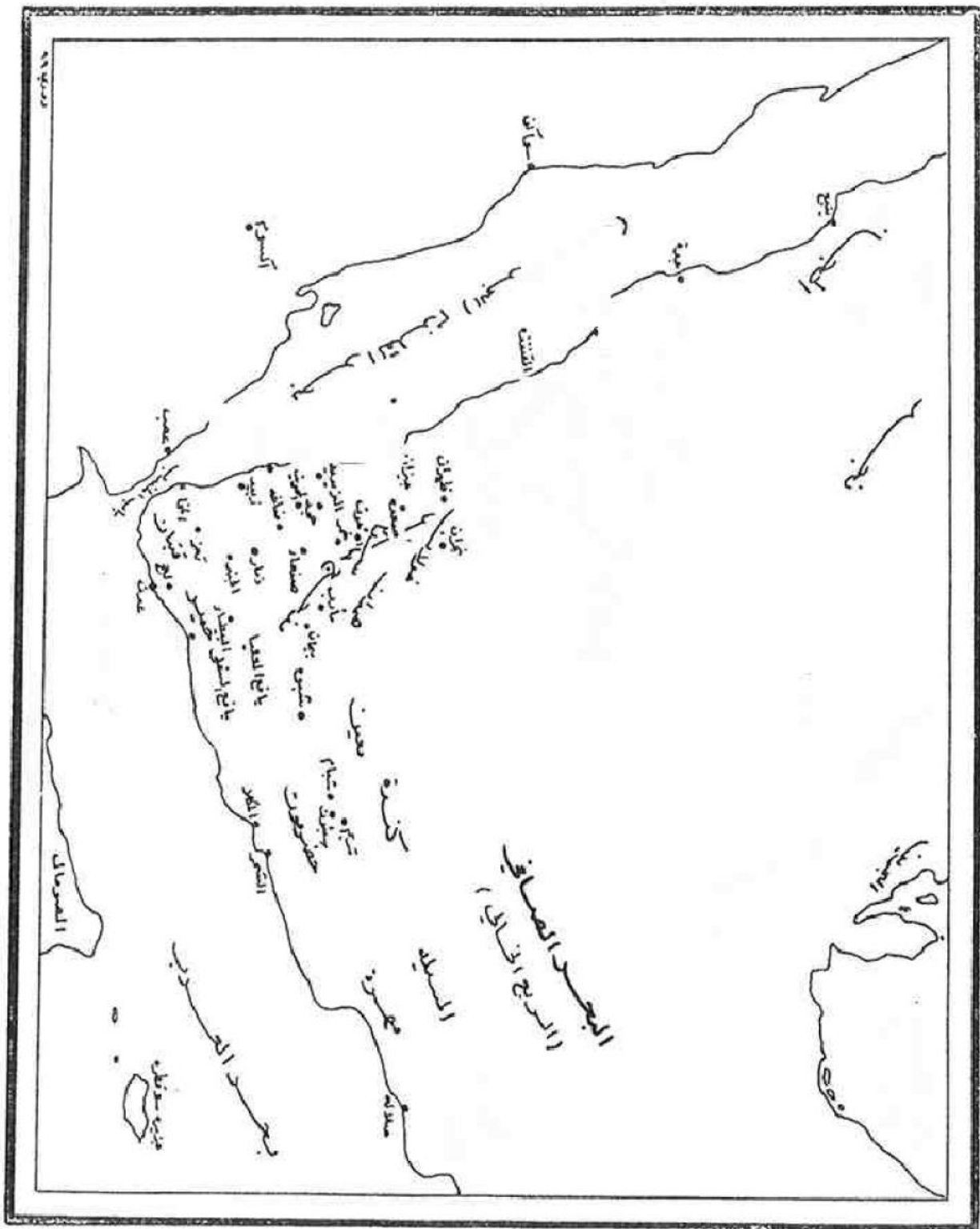
5/ **العروض** : وسميت كذلك؛ لاعتراضها بين اليمن ونجد والعراق، وتشمل مع اليمامة البحرين وعمان.

ج/ صفاتها :

مناخ الجزيرة في جملته حار شديد الحرارة، وتكثر في نجد **رياح السموم** الجنوبية التي تهب صيفاً؛ فتشوي الوجوه شيئاً، وألطف رياحها الرياح الشرقية ويسمونها **الصبا**، وأكثر شعراؤهم من ذكرها. أما **ريح الشمال** فباردة وخاصة في الشرق؛ إذ تتحول إلى صقيع في كثير من الأحيان. والأمطار عامة قليلة؛ إلا في الجنوب حيث تهطل أمطار الرياح الموسمية في الصيف، وإلا في الشمال الغربي حيث تهطل أمطار الرياح الغربية شتاءً. وكثيراً ما يتحول المطر إلى سيول جارفة في اليمن وشمال الحجاز، وتقل الأمطار في الداخل، ومتى احتبست الأمطار جفت الأرض وأجدبت وحل الهلاك والفناء على القطعان والرعاة، ومن أجل ذلك كثرت عندهم الرحلة في طلب العشب والكأ، فترحل القبيلة بإبلها وأغنمها إلى مراعي جديدة.

وفي الجنوب والشرق وقرى الحجاز واليمامة تكثر الزروع والشمار وتتناثر بعض الفواكه، وقد اشتهرت اليمن وما والاها قديماً بأشجار اللبان والطيب والبخور، وتشتهر الطائف بالكروم، ولم يكونوا يعتمدون عليها وحدها في الخمر؛ بل كانوا يعتمدون أيضاً على مدن الشام، والنخلة أهم الأشجار في الجزيرة كلها. ويتردد على السنة شعراء نجد ذكر طائفة من الأزهار على رأسها العرار والخزامى وطائفة من الأشجار على رأسها الغضا والأثل والأرطى والسدر "الطلح" والحنظل والضال والسلم.

أما الحيوان؛ فقد صور شعراؤهم كثيراً من أليفه مثل الخيل والإبل والأغنام ووحشيه مثل الأوعال والظباء والنعام والغزال والزراف وحمار الوحش وأتته وثور الوحش وبقرة، ومثل الأسد والضبع والذئب والفهد والنمر. ودارت الطيور الجارحة على ألسنتهم مثل الحدأة والصقر والنسر والغراب، وقلما وصفوا منها دون أن يذكروا القطا وهو يشبه الحمام. وذكروا كثيراً الجراد، وتحدثوا عن النحل واشتهرت به هذيل التي كانت تعنى ببيوته وخلاياه. ومن زواحفهم الثعبان والعقرب والورل والضب.



خريطة للمواقع التاريخية في شبه الجزيرة العربية